II. أسس التَربية البيئيَّة في مجال الإتِّصال العمومي(*)

أ. أمال عميرات(**)

إنَّ كلَّ الحياة الاجتماعية هي مجال للإتِّصال العمومي الهادف نحو المصلحة العامة لذلك كلَّما توسَّعت وتشبَّعت هذه الحياة كلَّما زادت الآفات والمشاكل وأصبح الإتِّصال العمومي أكثر من ضرورة خاصَّة في عصرنا الحالي، ومع أنَّ أغلب المراجع ركَّزت على أبعاد دون أخرى سنذكر بعض الأبعاد التي يطالها الإتِّصال العمومي –على سبيل المثال لا الحصر– كونها فرضت نفسها كمجالات أساسية من مجالات الإتِّصال العمومي وربطها بأهداف الدعوة الإسلامية التي أثبتت في أكثر من بُعد أو مجال تقدُّمها في محاربة مختلفة الآفات على اختلاف أبعادها ومجالاتها.

البعد البيئي للإتِّصال العمومي

لقد أصبح الحديث عن الإتِّصال البيئي حديث الساعة نظراً لما **آلت إليه الطبيعة من تدمير وخراب بسبب الإنسان**، ناهيك عن المؤتمرات والملتقيات، المنظمة في هذا المجال والإتِّصال العمومي أيضاً يهتمُّ **بالسلوكات الحضارية التي تحافظ على البيئة**، أمَّا عناية السنة النبوية أو الدعوة الإسلامية فكانت أكثر تفصيلاً وتفريعاً بل سبقت في **عنايتها بالبيئة بآلاف السنين عن طريق القرآن الذي وضع** الأصول والقواعد الكلِّية والسنة التي ترشح بالأحكام والتوجيهات الجزئية والفروع التفصيلية.

---

*) موضوع نشر في مجلة **فكر ومجتمع، ع10**.

) الآن/ محاضرة بكلية علوم الإعلام والإتِّصال، **جامعة الجزائر3.

حيث سبقت السنة النبوية الجماعات والأحزاب المعاصرة في كثير من أنحاء العالم التي تنادي **بالمحافظة على (الخضرة) في الغابات وغيرها** وتندِّد (بقتلة) الأشجار و(بالمذابح) التي تتعرَّض لها **الأراضي الخضراء** نتيجة جهل الإنسان وجشعه[1].

أصبحت قضية البيئة ومشكلات البيئة **وتلوُّث** البيئة واستنزافها، بل التوازن في الكون كلُّه حديث المثقَّفين والمفكِّرين والعلماء في العالم كلُّه بل أصبح هم الجماهير

الغفيرة من الناس لأنَّ **فساد البيئة واستنزافها يهدِّد الجميع** حتى قال بعض الباحثين: لو كان للبيئة لسان ينطق وصوت يسمع لصكت أسماعنا صرخات الغابات الإستوائية التي تحرق عمداً في الأمزون وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخلجان والبحار وحشر به الهواء بغازات المصانع والرصاص في مدن العالم الكبرى لقد بات للبيئة علم خاص يبحث في قضاياها ويفصل موضوعاتها ويعالج مشكلاتها ألف فيه عدد كبير من الكتب في العالم بمختلف اللُّغات وطبيعي أن تنشأ للبيئة وحمايتها في كلِّ الدول مؤسَّسات رسمية وشعبية علمية وعملية وإقليمية ودولية وتعقد ندوات علمية وحلقات دراسية ومؤتمرات لمواجهة القضية الكبيرة بما تستحقُّه[2].

لقد انتشرت كلمة حماية البيئة حتى غدت شبه مصطلح فيما ينبغي عمله نحو البيئة، لكن الكلمة الأحق والأولى من كلمة الحماية هي كلمة الرعاية، فكما يقال، رعاية الطفولة ورعاية الأمومة، رعاية الأسرة، نقول أيضاً رعاية البيئة، ذلك أنَّ كلمة الحماية تقتضي المحافظة على البيئة من جهة العدم أو السلب، بمعنى المحافظة عليها من كلِّ ما يفسدها أو يضرُّها أو يلوِّثها، أمَّا كلمة الرعاية فهي تقتضي المحافظة على البيئة من جهة الوجود ومن جهة العدم جميعاً، بعبارة أخرى من جهة الإيجاب ومن جهة السلب فمن جهة الإيجاب أو الوجود ينبغي العناية بالبيئة من جهة ما يرقى بها ويصلحها وينميها ويصل بها إلى الغاية الموجودة ومن

جهة السبل أو العدم ينبغي حمايتها من كلِّ ما يعدُّ عليها بالضرر والتلوُّث والفساد وكلُّ هذا يدخل تحت مفهوم العناية، وهذا هو الفرق بين نظرة اليوم للبيئة بنظرة الحماية ونظرة الدعوة الإسلامية للبيئة بنظرة الرعاية والإصلاح معروفة وسلوكاً، وفكراً وتطبيقاً.

الدعوة الإسلامية شملت علم البيئة وعلم الاقتصاد والأخلاق لأنَّها ترى أنَّ العناية بالثورة الحيوانية هي شمول الأخلاق السامية واتِّساع دائرة المسؤولية فيها، وأنَّها لاتقف عند الإنسان فقط بل تشمل كلَّ كائن حي من الحيوان والطير وغيره، بل في أحاديث أخرى ما يشمل الجمادات أيضاً، فالدعوة الإسلامية تربية أوسع أفقاً وأبعد مدى من مجرَّد التربية الدينية التي تقتصر في أذهان الكثيرين على غرس العقائد وتعليم الشعائر، إنَّها تربية ودعوة تتعلَّق بكل نواحي النشاط التي يمارسها الإنسان في الحياة روحية ومادية، فردية واجتماعية، نظرية وعلمية[3].

الدعوة الإسلامية تحافظ على الأجناس الحية من الإنقراض

تؤكِّد الدعوة إلى حقيقة كونية قرَّرها القرآن الكريم في الآية 38 من سورة الأنعام، وهي أمُّ الكائنات الأخرى –غير العاقلة– لها كينونتها الاجتماعية الخاصَّة التي تميِّزها عن غيرها وتربط بعضها ببعض فكلُّ منها أمة مثلنا أي أمَّة لها كيانها واحترامها، ولا يقتضي ذلك المشابهة في كلِّ شيء بل أنَّ لله حكمة في خلقها وتمييزها عمَّا سواها من الأجانب والأمم الأخرى، فأمة النمل غير أمة النحل غير أمَّة العنكبوت وأمَّة الكلاب غير أمَّة ابن آوى، وما دامت أمة لا ينبغي أن تستأصل، خلقها حكمة وضرب من المصلحة[4].

ويتَّصل بتلويث البيئة إشغال الطريق بأيِّ شكل من الأشكال سواء كان ذلك بإشغاله بمخلَّفات البناء أو القمامة أو المستشفيات التي تعوق حركة الناس وتضرُّ بصحَّتهم، أو حتى بإشغال الطريق بالجلوس فيه ممَّا يسبِّب مشقة للعابرين، ففي الإسلام حتى الطريق لديه حق، وفي حياتنا اليومية أمور عديدة تعوَّد الناس عليها على الرغم من أنَّها تعدُّ من ملوِّثات البيئة التي تسبِّب إزعاجاً للآخرين مثل الضوضاء المفرطة ورفع الصوت عند الحديث وإساءة استخدام مكبِّرات الصوت في دور العبادة أو في الأفراح والتدخين والمبالغة في رفع أصوات الإذاعة والتلفزيون أو المسجِّلات في البيوت أو الشوارع أو السيارات وهي أمور تدخل في إطار الإضرار بالناس المنهي عنه طبقاً للقاعدة النبوية لا ضرر ولا ضرار[6].

التأصيل الشرعي لرعاية البيئة: إنَّ رعاية البيئة وحمايتها وإصلاحها والمحافظة عليها ليست أمراً دخيلاً على علوم الإسلام والدعوة الإسلامية وليست من ابتكار الغرب في هذا العصر كما قد يتوهمه من لم يتعمَّق في معرفة التراث العلمي والحضاري الإسلامي، فرعاية البيئة تتَّصل بعلم أصول الدين أو علم التوحيد وبعلم السلوك وعلم الشريعة أو الفقه وبعلوم القرآن والسنة[7].

أ) **علم أصول الدين ورعاية البيئة**: دور الإنسان الأساسي اتجاه البيئة المسخَّرة له أن يتعامل معها بما لا يجافي سنن الله في خلقه ولا أحكام الله في شرعه فيأخذ منها ويعطيها ويرعى لها حقها لتؤتي له حقه ويتمثَّل هذا الدور الإنساني في مهام ثلاثة وهي الأهداف الكبرى للحياة الإنسانية وهي مقاصد الله من المكلَّفين بعبادة الله، خلافة الله في الأرض وعمارة الأرض وذلك بالغرس والزرع والبناء والإصلاح والإحياء والبعد عن الفساد، وهي مقاصد متداخلة ومتكاملة.

ب)**علم السلوك ورعاية البيئة**: تدخل رعاية البيئة هنا في دائرة الخلق ومن أعظم توجيهات الدعوة الإسلامية بالنسبة إلى البيئة الإحسان إليها بكلِّ عناصرها بالإحسان للإنسان، للحيوان، للماء والهواء، فالدين المعاملة ليس مجرَّد شعار، ثم يساء بعد ذلك للخلق والإنسان والحيوان والكون، فمعنى الدين المعاملة، إحسان المعاملة مع الله مع النفس، الجسد، العقل والروح والناس جميعاً والكائنات المحيطة جامدها وحيها، صامتها وناطقها وغير عاقلها، وبهذه النية يتعامل الإنسان مع البيئة ومكوِّناتها من حوله رفقاً بها وإصلاحاً لها من تشجير وتخضير وإحياء وتعمير ونظافة وتطهير ورفق وإحسان والمحافظة على مواردها وثرواتها من كلِّ أنواع الإضاءة والإتلاف والفساد في الأرض[8].

ومن أجمل ما جاء به الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة وبالكون عامة إنشاء عاطفة الود والحب لما حول الإنسان من كائنات، فالأحياء من الدواب والطيور يراها أمم أمثالنا لها خصائصها وطرائقها وغير الأحياء يراها ساجدة مسبحة لله، فإذا كان الغربيون يعتبرون أساس المشكلة الاقتصادية هو قلَّة الموارد في مقابل كثرة البشر فإنَّ القرآن يرى أنَّ نعم الله لايمكن إحصاؤها وموارده في الكون غزيرة، لكن المشكلة تكمن في الإنسان الظلوم المسبِّب للخلل في الكون بتجاوزه.

ج) **أصول الفقه ورعاية البيئة**: حفظ البيئة من المحافظة على الدين والجناية عليها وحفظها من المحافظة على النفس أي على الحياة البشرية وسلامة البشر وصحَّتهم وحفظها من المحافظة على النسل أيضاً، حيث بقاء النوع الإنساني في هذه الأرض والجناية عليها تهدِّد أجيال المستقبل، كما أنَّ الحفاظ على البيئة من المحافظة على العقل الذي هو أساس التكليف في الإسلام، فحفظ البيئة يقتضي الحفاظ على الإنسان بكيانه كله، الجسدي العقلي، النفسي، وما يقوم به الإنسان اليوم من إفساد للبيئة وتعريضها وتعريض نفسه للخطر يُعدُّ ضرباً من الجنون لا يعرف مضره ممَّا ينفعه، كما أنَّ الحفاظ عليها من المحافظة على المال وهي الضرورة

الخامسة، فالأرض مال والشجر مال والزرع مال والأنعام والماء والمعادن والنفط والمحافظة عليها محافظة على البيئة وإنماء لها.

د) **القرآن ورعاية البيئة:** كل العلوم الشرعية السابقة الذكر أعتمدها القرآن والسنَّة تستند عليها في أحكامها، فمن دلائل القرآن على الاهتمام بالبيئة وجود عدد من السور بأسماء الحيوانات والحشرات والمعادن وبعض الظواهر الطبيعية، حيث لها دلالتها وإيحائها وارتباطها بالبيئة، أمَّا السنة فقد ورد الأمر بالغرس والزرع في جملة من الأحاديث الصحاح بالإضافة إلى تشجيع إحياء للأراضي الموات التي ليس لها مالك ولا ماء ولا ينفع بها والعناية بالحيوانات وحقوقها التي يجب أن ترعى وتؤدِّي، المحافظة على الثروة النباتية والمائية وصحة الإنسان المرتبطة بسلامة البيئة، فالدعوة الإسلامية بنقاء عقيدتها وكمال شريعتها وتوازن أخلاقها جديرة أن تقدِّم للإنسانية في مشكلات البيئة وصفة الدواء وهداية الشفاء بما احتوته من توجيهات وتشريعات وأخلاقيات مرتبطة كلُّها بالإيمان بالله، لعلَّ البشرية تستفيد في سلوكها البيئي من هذه الدعوة الإسلامية، فهي هداية للبشرية جمعاء[9].

واقع علاقة الإنسان بالبيئة اليوم والمبررات الشرعية الموجبة للحفاظ عليها

إنَّ إنطلاق الثورة الصناعية من منطلقات مادية بحتة بغير ضوابط أخلاقية وبغير فهم صحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة أصبح يتهدَّد الأرض جميعاً بالدمار ومن ثمَّ أصبح يؤكِّد حاجة الإنسان إلى الهداية الربانية في كلِّ سلوك يسلكه على هذه الأرض، وما دام الإنسان خليفة الله في الأرض، يعمِّر فيها، فإنَّ عمارة الأرض تكون بحسن استثمار ثرواتها، بالعلم والتقنية والمحافظة على صفاتها الفطرية لتيسير حياته كلُّها حيث لديه من ملكات حسِّية وعقلية وبدنية ما يعينه لتحقيق ذلك، ومسؤولية الإنسان

على الأرض مسؤولية كاملة، عن صخرها ومائها وهوائها نباتها وهو ما يسمَّى بالبيئة أي كلُّ ما يحيط بالإنسان من مختلف صور المادة والطاقة والحياة ومن نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية ودينية وهو مسؤول أمام الناس على المحافظة عليها، فتصبح المحافظة على البيئة من مقاصد الشريعة الإسلامية والإعتداء على أحد مكوِّناتها المادية أو المعنوية هو مخالفة شرعية وعلى ذلك فإنَّ من الواجب أن يكون الإفساد في الأرض أو في البيئة بمختلف أبعادها المادية والمعنوية مخالفة قانونية في دستور كل أمة من الأمم وجزء من تشريعاتها، يعاقب أولياء الأمور كل متجاوز لها حماية للإنسانية كلُّها.

هوامش

1) يوسف القرضاوي: **السنَّة مصدر للمعرفة والحضارة**، دار الشروق، القاهرة، 2005 ص141.

2) يوسف القرضاوي: **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص07.

3) السنة مصدر للمعرفة والحضارة، م،س،ذ، ص 145.

4) محمود حمدي زقزوق: **الإنسان والقيم في التصوُّر الإسلامي**، ط1، دار الرشاد، القاهرة، 2003، ص78.

5) المرجع السابق، ص 80

6) رعاية البيئة في شريعة الإسلام، م،س،ذ، ص23.

7) المرجع السابق ص44.

8) زغلول النجار: **رسالتي إلى الأمَّة**، ط1، نهضة مصر، القاهرة، 2009، ص157.

9) المرجع السابق ص158.